العرب
الخميس 2020/12/03
السنة 43 العدد 11900

«البوكينيست» يواجه خطر الاندثار في تونس

عشاق الكتب يطلقون حملة على فيسبوك لإنقاذ الحصن الأخير للثقافة

لم يعد الكتاب خير جليس في تونس، فلقد عزف التونسيون عن شراء الكتب منذ الثورة وأصبح بائعو الكتب القديمة في العاصمة مهددين بالإفلاس ما جعل بعضهم يترك شغفه إلى مهنة أخرى يعيل بها أسرته، فيما وجد البعض الآخر السند من ناشطين على فيسبوك أطلقوا حملة لإنقاذ محله من الإغلاق.

تونس - بنى نهج إنجلترا وسط العاصمة تونس المزدحمة، سمعته منذ مطلع القرن العشرين من بيع الكتب القديمة المتراصة على جانبي الأرصفة، لكن هذه السمعة باتت اليوم مهددة بالاندثار.

يقضي كبير "البوكينيست" (بائع الكتب القديمة) فوزي الهذيلي (70 عاما) أكثر من نصف اليوم في مكتبته العريقة التي تتصدر المكتبات في النهج ذي البنايات الفرنسية، وهو يقلب دفعات جديدة من الكتب المستعملة قبل إيجاد مكان مناسب لها في الرفوف المزدحمة.

يتلقى الهذيلي منذ أن بدأ العمل إلى جوار والده في المكتبة عام 1969، الكتب المستعملة من الأصدقاء ومن المكتبات التجارية ومن الجمعيات، كما يتلقى كتبا من الخارج.

واستطاع خلال سنوات أن يجعل من مكتبته مقصدا رئيسيا للباحثين عن المراجع والكتب النادرة. تضم المكتبة اليوم قرابة 300 ألف كتاب، من بينها مراجع وكتب تعود إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبلغات متعددة. وقد اضطرت عائلة الهذيلي عند استلامها المكتبة من مستوطن فرنسي عام 1953 إلى إعادة تأثيثها بالكامل.

على إحدى الرفوف وسط الأروقة الضيقة في جوف المكتبة، يمكن ملاحظة كتب تعلم اللغة اللاتينية إلى جانب باقي اللغات الأجنبية، الألمانية والإيطالية والإسبانية والصينية، والمعاجم المتخصصة وكتب التاريخ والجغرافيا والأدب.

وعلى رف آخر تظهر سلسلة متخصصة لتاريخ الكنيسة الكاثوليكية صدرت في منتصف القرن التاسع عشر، وإلى جانبها مراجع فقه القضاء العام الصادرة عن دار النشر الفرنسية دالوز في نفس الفترة.

وهناك روايات "شيري" البوليسية ومجلات للترفيه والموضة تعود إلى عقود ماضية يلفها الغبار وروائح الورق بفعل التخزين والرطوبة.

ولا تبدو على الهذيلي علامات الشيخوخة رغم سنه المتقدمة، ويرجع ذلك في تقديره إلى شغفه بالكتب منذ فترة صباه وإقلاعه عن التدخين وشرب الكحول، غير أنه لا يخفي قلقا يعتريه بشأن مصير مكتبته ذات الشهرة الواسعة في صفوف الطبقة المثقفة في العاصمة، بسبب الكساد الاقتصادي وركود المبيعات بشكل حاد.

ولكن بشكل مؤقت، يمكنه أن يلقي خلف ظهره هذا الشعور بعد أن تلقى دفعة معنوية من متصفحي مواقع التواصل الاجتماعي تلبية لنداء استغاثة كان أطلقه من أجل إنقاذ مكتبته من خطر الإفلاس والإغلاق.

أخرج فوزي تنهيدة عميقة من صدره قبل أن يكشف عمّا يشغله حيث قال"أطلقت صيحة فزع من أجل الناشئة، من أجل أن يعودوا إلى القراءة. ما يحصل اليوم من هجرات جماعية للشباب سببه الابتعاد عن الكتب. إلى أين نحن ذاهبون؟".

ويضيف فوزي في حديثه "في السابق كانت العائلات تأتي إلى هنا، وكذلك الشباب والطبقة المثقفة وحتى الوزراء... كان الجميع يأتون، لكن منذ اندلاع الثورة في عام 2011 تغيرت الأوضاع بشكل جذري كما تغيرت القيم".

ويشكو فوزي الهذيلي كباقي أصحاب المكتبات القديمة بنهج إنجلترا الممتد على نحو 200 متر، من تداعيات الأزمة الاقتصادية المستمرة في تونس منذ 2011 بموازاة الانتقال السياسي في أعقاب الثورة.

> بائع الكتب المستعملة عرف عصره الذهبي في السبعينات والثمانينات، لكن الأزمة بدأت تظهر بعد الثورة

وزادت الأزمة الصحية المرتبطة بوباء كورونا من محنة باعة الكتب وبعضهم بات على شفا الإفلاس. وعلى الرغم من الحركية الكبيرة التي تميز النهج الذي يتقاطع مع نهج الجزيرة التجاري، وهو أيضا على مقربة من محطة المترو الرئيسية ومحطة القطارات بساحة برشلونة، إلا أن الكتب المعروضة على الرصيف لا تجلب انتباه المارة.

ويأتي أغلب الزائرين للسؤال عن كتب ومراجع محددة من أجل بحوث متخصصة وليس للتقليب والانتقاء. وتشير نتائج سبر آراء نشرتها مؤسسة "امرود" للإحصاء في تونس أن 82 في المئة من التونسيين لم يقرأوا كتابا واحدا في عام 2019.

ولدعم مكتبة الهذيلي، بدأ ناشطون على فيسبوك بجمع تبرعات لمساعدته على سداد ديونه في حملة أطلقوا عليها "الحصالة الإلكترونية" وانتشر هاشتاغ "أنا اشتريت كتابا. وأنت متى؟" في مسعى للتشجيع على قراءة الكتب.

ويقول الهذيلي "طلب مني كثيرون العدول عن قرار الإغلاق والتريث إلى حين. حصلت على هبة من الشغوفين بالكتب بعد ندائي على فيسبوك. آمل أن يستمر هذا الحماس".

وتابع الهذيلي "لدينا التزامات لخلاص أجور الصناع والكهرباء والأداءات ومعاليم التغطية الاجتماعية. لقد تغيرت الأولويات اليوم لدى العائلات وتأخر الكتاب في سلم الأولويات اليومية".

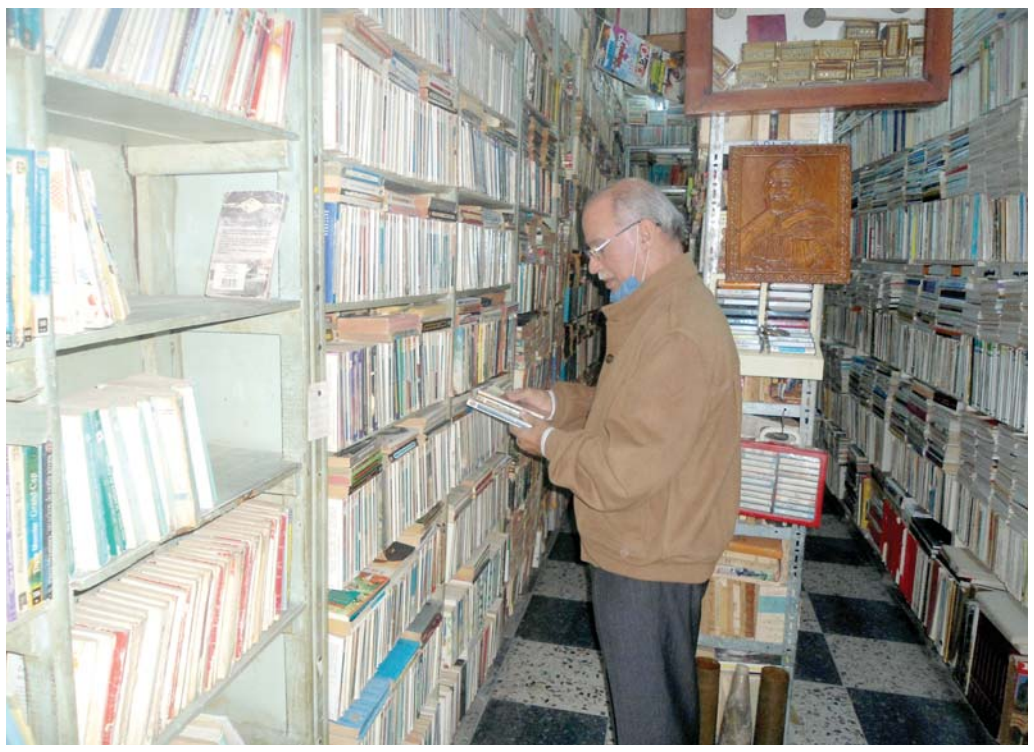

كنز في انتظار البيع

وضع مكتبة الهذيلي الأكبر والأقدم في نهج إنجلترا يعد أقل تعقيدا من بين نحو خمس أو ست مكتبات في هذا النهج تواجه جميعها مصيرا مجهولا.

ويقول محسن عمري، إنه قد يضطر بعد نحو أربعة عقود من العمل في مجال بيع الكتب القديمة، وفي خلال أشهر قليلة إلى التوجه للعمل في قطاع آخر لتلبية احتياجات أسرته.

ويضيف العمري الذي يعمل في "مكتبة المزوغي" الناشطة في بيع الكتب القديمة منذ عام 1965 "تطلبت الحركة الثقافية بعد الاستقلال في بداية عقد الستينات مثل هذا النوع من بيع الكتب "البوكينيست" للتشجيع على القراءة والمساعدة في نشر التعليم. لعب الكتاب دورا محوريا في الحد من نسبة الجهل والأمية".

ويتابع قائلا "عرف 'البوكينيست' عصره الذهبي في السبعينات والثمانينات من القرن الماضي، لكن الأزمة بدأت تظهر منذ التسعينات".

ويرفض عمري الرأي القائل بأن تطور أجهزة الاتصال مثل التلفزيون والإنترنت أثر بشكل أساسي على تدني مبيعات الكتب الورقية وتراجع القراءة، بدليل أن الإقبال على الكتب في الدول الغربية لا يزال كبيرا حتى في ذروة الأزمة الصحية المرتبطة بالوباء.

وفي تقديره، فإن المشكلة مرتبطة بالتكلفة العالية لنشر الكتب في مقابل إحجام الدولة عن تقديم الدعم لهذا القطاع وللثقافة عموما إلى جانب الصعوبات الطارئة على أزمة التسويق.

ويشير الناشطون في حملاتهم على مواقع التواصل الاجتماعي إلى مخاطر إتلاف جزء من الذاكرة الوطنية في حال أدارت الدولة ظهرها لبائعي الكتب في نهج إنجلترا ودفعتهم إلى هجر محلاتهم نهائيا.

ويقول عمري "نحن الحصن الأخير للثقافة وهذا الحصن يستعد للانهيار. لن يمكننا الصمود أكثر. سيتعين علينا البحث عن نشاط آخر في القريب لأن الكتاب تحول إلى عنصر رفاهة في تونس ولم يعد عنصرا حيويا".

سكان واحة سيوة يرفعون علم مصر ويتحدثون الأمازيغية

واحة سيوة (مصر) - بينما يقود يوسف دياب شاحنته عبر واحة سيوة المصرية، يردّد أغنيات باللغة الأمازيغية المحلية مفعمة بالحياة .. إنها "السيوي".

وبالإضافة إلى مجموعة سيوة الصغيرة يتواجد البربر بغالبيتهم الساحقة في المغرب العربي (المغرب والجزائر وتونس وليبيا) حيث يطالب هؤلاء السكان الأصليون باعتراف أكبر بهويتهم وثقافتهم.

وهؤلاء البربر الذين سبق وجودهم التعريب والأسلمة، يسمون أنفسهم الأمازيغ وتعني "الرجل الحرّ" باللغة الأمازيغية.

يلعبون ويغنون بالسيوي

وتصنّف الأمم المتحدة هذه اللغة المتفرعة من اللغة الأمازيغية المستخدمة في شمال أفريقيا خصوصا في بلاد المغرب، على أنها "مهددة بالانقراض".

لكن في الواحة التي تقع في صحراء مصر الغربية، من يتحدثون العربية كلغة أساسية قلائل. وحين يلعب الأطفال عند سفح قلعة سيوة القديمة يتحدثون ويصيحون بالسيوي.

ويعبّر دياب، المرشد السياحي البالغ من العمر 25 عاما، الذي وضع على نافذة شاحنته الخلفية علما بربريا ملونا بالأصفر والأخضر والأزرق، عن قناعته بأن لغته الأم لن تموت، ويقول "الجميع يتحدثون بها هنا".

ويعتبر الأمازيغ في سيوة من أبرز الأقليات في مصر، أكبر الدول العربية من حيث عدد السكان (مئة مليون)، والتي حملت راية القومية العربية لفترة طويلة.

وتقع سيوة على بعد حوالي 560 كيلومترا غرب القاهرة، ولم تخضع الواحات لسيطرة الدولة إلا عندما سيطر عليها محمد علي باشا مؤسس مصر الحديثة في العام 1820.

وتقول فالنتينا سيريلي، أستاذة اللغويات الاجتماعية التي أعدت أطروحة دكتوراه عن اللغة في الواحة، إن انعزال الواحة "سمح لسيوة وسكانها بالحفاظ على تقاليدهم الخاصة ولغة تميّزهم عن الثقافة المصرية السائدة".

وحتى ثمانينات القرن الماضي، لم تكن اللغة العربية رائجة هناك، إلا أن "السياحة والإعلام والتنقل من أجل التعليم العالي أو للعمل"، بحسب ما تقول سيريلي، كلها أمور ساهمت في انتشارها.

وقدّرت الأمم المتحدة في العام 2008 أن نحو 15 ألف شخص يعيشون في الواحة، أي تقريبا نصف السكان، يتحدثون السيوي. لكن سيريلي ترى أن الرقم الحقيقي يزيد بحوالي 5000 شخص.

وتتابع "تعتبر اليونسكو اللغة 'مهددة بالتأكيد' لأن الأطفال لم يعودوا يتعلمونها كلغة أم في المنزل".

وتستطرد "على حد علمي، هذا ليس صحيحا.. اللغة السيوي هي السائدة في الحديث، حتى بين الصغار".

ويقول إبراهيم محمد، أحد شيوخ القبائل في المنطقة البالغ عددها 11 قبيلة، إن السيوي كان مركزا لـ"الهوية الأمازيغية" للواحة.

وعلى الرغم من تدفق السياح في العقود القليلة الماضية إليها، لا تزال الواحة معزولة نسبيا، إذ لا يمكن الوصول إليها إلا عبر طريق واحد على ساحل البحر المتوسط.

ويقول رئيس مكتب السياحة المحلي مهدي الحويتي، ابن الواحة الذي ابتعد من أجل الدراسة ثم عاد، "السيويون في سيوة مثل السمك في الماء، لن يتركوها لأجل أي شيء في العالم".

وعلى الرغم من هذا الولاء للجذور، يواجه سكان سيوة تحديات عديدة لحماية لغتهم، بما في ذلك الهيمنة الثقافية للغة العربية وحقيقة أن لغة السيوي يتم تناقلها فقط داخل العائلات.

ويتذكر الشيخ إبراهيم الذي كان اعتمر قلنسوة سوداء، "في الماضي، كان الآباء يتحدثون فقط السيوي التي لم يجمعها شيء مع اللغة العربية". ويقول "اليوم، أصبحت اللغة أقرب وأقرب إلى العربية".

> انعزال واحة سيوة سمح لسكانها بالحفاظ على تقاليدهم الخاصة ولغة تميزهم عن الثقافة المصرية السائدة

وبينما تتيح مناهج المدارس المصرية دراسة اللغات الأجنبية، لا يتم تدريس أي من لغات الأقليات في البلاد مثل السيوي والنوبي.

ويرى محمد أن "اللغة يجب أن تدرس بشكل رسمي حتى لا تختفي".

وتبذل جمعية "أطفال سيوة" الأهلية المحلية جهودا للحفاظ على اللغة.

وفي العام 2012، حرصت الجمعية على نشر مجموعة من الأغاني والقصائد والأمثال باللغتين السيوية والعربية، وعمل على ذلك 60 شخصا من شباب وشيوخ الواحة بالتعاون مع بعض الشركاء من المغرب وإيطاليا.

لكن على الرغم من هذه الجهود، فقد نفدت نسخ الكتاب ولم يعد التمويل كافيا لطباعة نسخ أخرى، وفق ما يقول نائب رئيس الجمعية يحيى قناوي.

ويضيف "نحن بحاجة إلى بذل المزيد من الجهد للحفاظ على تراثنا.. لكن لا يمكننا أن ننجز عشرة في المئة مما نرغب به، لأن الجمعية لا تحصل على أي تمويل".

ورغم ذلك يتمسك دياب بأمل استمرار تناقل لغته. ويقول "في المدرسة، يتعلم ابني إبراهيم العربية ويقرأها ويكتبها. أما في المنزل، فعليه أن يتحدث بالسيوي".